

# العلاقات الجدلية بين النظرية والثورة

بقلم عزيز السيد حاتم

في جذره البديهي الانشأة ضرورية لروح الثورة في تموضع جديد يتخذ فيه الخط - خط روح الثورة - مدى جديدا يقفز الى الفعالية دون الوقوف عند حد الثورة البدائية . فالسحر ك محاولة شمولية - تاريخيا - لعتق الانسان من عبوديات الخارج والتحرر من الخوف انما يوضح ان روح الثورة عند الانسان بدأت تتلمس نفسها وتضع لنفسها سيرا آخر . غير ان ظهور التقسيم في العمل هو اول سبب رئيسي حاسم اعطى لروح الثورة في الانسان وضعها العياني البارز . فما ان ظهر التقسيم بين ( الرجل والمرأة ) - كأول تقسيم اجتماعي للعمل - وكذلك التقسيم الناتج عن الزراعة والصيد ، ومن ثم الزراعة والرعي حتى أخذت الثورة الكامنة في أعماق الانسان وعيا يخطط لها بعدها . فالصراع الطبقي اذن بلور روح الثورة بلورة « عميقة » ودفع بها الى حدود أخرى خارج الذات وبشكل عملي وجمعي محسوس . وبدلا من أن تتحدد روح الثورة في القضية الذاتية الوجودية السابقة تناولت شرطا اجتماعيا جديدا واتخذت مضمونا حسيما ملموسا تتصرف من خلاله .

ويقدر ما حصل من أزيداد في الاضطهاد الطبقي - لا سيما في عصر الرق - حصل بالمقابل تمرد حسي متراكم عبر عن نفسه بعدة صور . غير ان انضج هذه الصور وأكثرها فعالية هي صورة الثورة الجماعية . فاذا كان هروب الزنجي - أو الصدامضطهد - من سيده هو حركة تلقائية من روح الثورة الفرزية في الانسان فإن الثورة الجماعية أو الاحتشاد الثائر هو معنى مجسد لصيرورة الثورة .

فهل كانت ثورة ( سبارتاكوس ) مزودة بفكر ثوري او على الاقل بنظرية في الثورة ؟ ان ثورة سبارتاكوس هي بالاساس رد فعل شديد ضد العبودية والاضطهاد . وباحتواء روح الثورة ( لرد الفعل ) هذا واحتواء رد الفعل لروح الثورة صيغت هذه العملية الثورية العظيمة . أي انها لم تكن مسبقة بفكر ثوري أو باعدادات نظرية أو بمعلومات فلسفية . وربما ما خلفته من حركة في ( الفكر ) بعد اتبناها وأخادها كان أكثر مما يهئ لها أو يسبقها من فكر بكثير لو سلمنا أن نمة معاني فكرية مرصودة مع الحدث . من هذا يتضح ان اغلب الحركات الثورية قبل العهد البورجوازي كانت حركات مفتقرة الى الفكر الثوري وهذا طبيعي تماما .

ولكن السؤال الثاني الذي سرعان ما يتطلب الجواب هو : هل ان كل الثورات ليست مسبقة بفكر تحريضي وداع للثورة ؟ في الواقع لا . فباستقراء الحركات الثورية تاريخيا بعد بدء العهد البورجوازي نجد أنها محاطة من كل الجهات بتيارات فكرية متعددة . ولكنها مع ذلك نستطيع ان نميز هيكليا بين نوعين من الحركات الثورية من حيث علاقتها بالفكر الثوري . الثورات الاشتراكية والديمقراطية الشعبية وهي ثورات برزت نفسها من خلال تعبئة نظرية وسياسية وجمهيرية سابقة للحدث الثوري . وبذلك يكون فيها الحدث الثوري تجسيدا لصورة عن المستقبل في ذهن الثوريين وفي تكويناتهم الايدولوجية .

أما النوع الثاني فيتمثل في الثورة الوطنية او التحررية التي لم يجر لها أعداد نظري متكامل بل تتم ضمن أفكار محدودة ومعينة تتعلق بأساسيات وطنية وعمومية دونما افاضة في الرؤية الثورية

ان سمة هذا العصر الأساسية هي التحول الاشتراكي . فلم تعد الاشتراكية محصورة في وطن واحد أو مجموعة اوطان بل أنها البديل الثوري العادل الذي أختارته الجماهير في اوطان عديدة فيما بدأت الرأسمالية بالانحسار والتخلي تحت وطأة ضربات الشعوب عن كثير من مركزاتها المصلحية ومرافق تموين شركاتها الاحتكارية . والتحول الاشتراكي نفسه لم يتخذ صورة محددة أو منهجا دوغمائيا ، والرأسمالية في ذلك قد تقرر الى حد بعيد نوعية التحول ودرجته . ولهذا فيبين الأمكانية الثورية الجماهيرية المتهاينة وبين طبيعة السلوك الرأسمالي المتغير تتولد وتائر متعددة ومرنة للتحول نحو الاشتراكية ، قد تكون سلمية أو عنيفة أو مزيجا بينهما .

والفكر الثوري في فترة النضال من أجل التحول الاشتراكي لا يمكن أن يقف بمعزل عن العمليات التفسيرية السائدة ، بل هو متجاوب بشكل كلي مع الفعاليات الثورية وسواء أكان هذا التجاوب منسقا أو غير منسق فإن الالتصاق بين الفكر والثورة هو التصاق طبيعي يتحتم من خلال القوانين الموضوعية لحركة المجتمع ، وانطلاقا من أهمية الفكر القسوى في شحن الثورة ودفعها الى غاياتها الحقيقية ، وحيث ان الثورة العربية تمر بازمة فكر حيث لا تزال الاقسام الوسيعة من الفكر العربي تجبو تحت ضغط التقليد الفضي والتحليل الرجعي والنفعية البورجوازية ، فمن الضروري وعي بعض الموضوعات التالية كمساهمة اولية ومدخل للقضية الأساسية ، قضية أعداد فكر ثوري عربي ممتلئ يتحرك بالثورة وتتحرك به الى أهدافها القسوى .

## ( ( الموضوعة الاولى: الفكر سابق للثورة ام بالعكس تاريخيا ؟ ) )

ان روح الثورة في الانسان هي السابقة . وهذه الروح هي التي تغذي تصرفات الانسان وتحدد له وظيفته العامة ازاء الكون وازاء علاقاته الاجتماعية واليومية . وروح الثورة طبيعية في الانسان ولكنها تتخذ اشكالا عديدة ، فهي آنا قد تكون بدائية رائدة ، وآنا بدائية متفانية ، وهي قد تكون واعية سالبة أو تكون ايجابية واعية . وفي اشكال الكينونة المتعددة هذه تختار روح الثورة حركتها ومواقفها في تظهير جلي عند الاحتكاك بقضية او بمجموعة قضايا بين الذات وخارج الذات .

وروح الثورة عند الانسان لا يمكن قصرها على « العاطفة » او على « العقل » ، فهي مزيج من العقل والعاطفة ، ولذلك فهي وحيدة التناقض الجدلية في الانسان التي تفجر نقيضها في سلسلة ديناميكية من الافعال والتسلكات .

ولجوء الانسان القديم الى افعال هي شرطية أساسا ، انما يوضح لنا ، روح الثورة ، هذه الروح التي تشكل بوضعها الدفاع عن الحياة ضد المجهول والخطر المحقق . فالانسان في لجوئه الى استعمال « العصا » أو « الحجر » أو تعلمه « صهر الحديد » بعد استعماله النار ، كل ذلك الفعل في استعمال الأدوات لغايات معروفة انما يعني ان روح الثورة في الانسان هي التمرد الطبيعي على الوضع السلبي الحيواني . ويتطور هذا العقل أو مجموعة الافعال وبظهور أدوات جديدة كان الانسان يرسم رفضه صورا عديدة على الحجر . وما السحر

ودونما وعي أيديولوجي للثورة بين التاكثيك والستراتيجية وبين المنطلق والحركة الغائية .

وأذا كانت هناك أنماط عديدة لمثل هذا النوع من الحركات الثورية ، فعمل الثورة الكوبية هي النموذج الرائع الذي يمد الحركة الثورية العالمية . بمعطيات باهرة . فالثورة الكوبية لم تكن جاهزة الأيديولوجية قبل تفجيرها . انها ثورة اختارت النظرية الثورية لاحقا وبدفع الحدس الثوري الصادق والوعي المشرق . ونجاحها قدم تجربة فريدة أغنت النضال البشري في نتيجة واقعية مؤداها ان الفكر الثوري قد يأتي بعد نشوء الحدث الثوري دون ان يسبقه فيما عدا وجود علائم اساسية أولى سابقة .

ومن هنا فان من الجبر اللاموضوعي اشتراط انتظار اطلاق ساعة الثورة لحين استكمال النظرية الثورية ، غير ان هذا لا يعني أيضا نفي الموضوعية الرئيسية الهامة في أن العدة النظرية الثورية المثلثة هي شرط كبير وحاسم في خلق ثورة أصيلة . ان التاريخ النضالي قد يجد في ميرته اللولبية التصاعدا مجالا حيويًا لكثير من الحركات الثورية التي يمتزج فيها التلقائي بالمدروس ونصف الوعي بالوعي أو قد تمتلك للغد رؤية محددة لكنها سرعان ما تتسع وتغير بعد التفجير .

### (( الموضوعية الثانية : الفكر والتأسيس البنائي التحتني ))

هل أن فكر الناس هو الذي يخلق وجودهم أم أن وجودهم هو الذي يقرر افكارهم ؟ هذا هو السؤال المطروح أمام الماركسية من قبل الميتافيزيك الفلسفي ، وهو ما أجابت عليه بعلمية . ولأول مرة في الفلسفة يتحرر الفكر من ( الكوجيتو ) الديكارتي و ( الترنسندنتاليه ) الكانتية . فالوجود البشري كوجود اجتماعي إنما يتقرر بوجود أساس كبديل للمثالية والميتافيزيكية المضللة . وإذا كان التأكيد قد جرى على العامل الاقتصادي كأساس مادي لحركة البشر الاجتماعية ، فان هذا لا يعني أن العامل الاقتصادي هو وحده الذي يطلق الحركة الاجتماعية ويفسرها . وقد أوضح ( أنجلز ) في رسالته التي ( بلوخ ) عام ١٨٩٠ ما يلي :

(( في المفهوم المادي للتاريخ ، ان العامل المقرر في التاريخ ، هو في آخر مرجع ، إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الواقعية . لاماركس ولا أنا أكدنا أكثر من ذلك في يوم من الأيام . وإذا ما قام أحد بتشويه هذا الموقف بمعنى أنه جعل العامل الاقتصادي العامل المقرر الوحيد ، فانه بذلك يحوله الى حملة فارغة مجردة حمقاء .. ))

وعند البحث في موضوع حساس وفاق الأهمية كهذا ينبغي ان نتناول الموضوع بالتقسيم التجريدي أول الامر حتى يسهل علينا الانتقال من التجريد الى الموضوعية الواقعية على اعتبار ان التجريد لا يلقي الواقع وان كان ينبثق منه ويعدله .

تجريدنا يجب توضيح الأساس المادي وهو مجموع العلاقات الإنتاجية للبشر ، وما اصطلح على تسميته بالبناء التحتاني أو الأساس . وهذا البناء يعزز العلاقات ( الفكرية ، السياسية ، الفنية .. الخ ) وهو ما اصطلح على تسميته بالبناء فوقاني . واستكمالا للتجريد فان التغيرات التي تصيب البناء التحتني تؤدي فعلا الى تغيرات لاحقة في البناء الفوقي . الى هنا ينتهي التجريد .

معنى ذلك أن الفكر كجزء من البناء الحفوقي إنما يتبع التغيرات المادية المتولدة في الأساس التحتني وانسجاما مع هذا التجريد يكون ( الفكر الاشتراكي ) نتيجة لقيام ( القوانين الموضوعية الاشتراكية ) اي أن نشوء المجتمع الاشتراكي هو وحده مولد الثقافة الاشتراكية . ويكون مستجيلا وجود ثقافة اشتراكية سابقة للعصر الاشتراكي وسببا من أسباب قيامه . ولكن هل أن التجريد يتطابق مع الوقائع التاريخية المعروفة ؟ ان ثورة اكتوبر ( تشرين الاول ) (الاتحاد

المسوفييتي ) أجابت بنقض هذا التجريد . لقد سبق الثورة فكر اشتراكي متعاطف كانت ( اللينينية ) عموده الفقري .

ان الفكر الثوري لا يتحتم عليه ان يظل منسحبا وراء التغيرات المادية الثورية . أنه قد يسبقها ويفترة طويلة جدا . وان في تاريخ الفكر اشارات نظرية ترمز للثورة البعيدة قبل زمن طويل ، علام يدل هذا ؟ ان دلالة الوحيدة ان الفكر ولو انه ينضج ويسع ويصير أكثر فعالية بالثورة وبالتحول المادي المتقدم لا يتقيد بالمراحل . ان أفكار ( بروناغوراس ) و ( هيرافليطس ) و ( ديمقراطس ) والرواقيه والايقوييه والطلبية كلها علامات ورموز وأشارات فكرية مضيئة تدل على التحول في الاشياء دون ان تنتظر التحول حتى تعلن ميلادها .

أذن للفكر فعالية خاصة ، وهو بامتزاجه بالارادة الثورية قد يوفق في خلق مجتمع اشتراكي من رحم مجتمع متخلف ما دام العصر هو عصر الاشتراكية وتعاطف المسكر الاشتراكي . فلا يمكن التوقف عند تشخيصات ميتة مثل ( المجتمع الاقطاعي يفرز فكريا أقل ثورية . وهذا الفكر غير قادر على أن يكون مرشدا للعمل ! ولهذا فبناء أساس للاشتراكية المقبلة هو من قبيل البناء في الهواء ! ) . ان تشخيصا كهذا بائس ومنفلق يتحدد في رؤية انزالية لا تلتفت للتغيرات العالية الكبرى التي تنضاف للقوانين الاجتماعية لكل بلد وتعمل على دفعها وتغييرها .

ان الأيديولوجيا الثورية والسياسة الثورية جزء هام من الممارسة الثورية التحولية في البلدان المتخلفة والتي تعطي تصورا في أنها بعيدة جدا عن الاشتراكية . وفي رسالة ل ( أنجلز ) الى ( ك . شميديت ) - ١٨٩٠ - قال : « اذا كان بارث يعتقد اننا ننكر دور السياسة والأيديولوجيا ، فهو يحارب طواحين هواء . ان ما ينقص كل هؤلاء السادة هو الديالكتيك . وانهم لا يرون سوى هنا السبب ، وهناك النتيجة . ولا يرون ان هذا تجريد بارد ، وان مثل هذه التعارضات القطبية ، الميتافيزيقية ، لا توجد في العالم الواقعي الا في أثناء الأزمات ، وان التطور الواسع كله يتتابع في شكل فعل متبادل .. »

فلاستنتاج هنا بدور الفكر السابق للتحويلات المادية هو اضافة صفة العالمية والشمولية للفكر أحيانا وقرار بأن الفكر الثوري قد ينبت مبكرا وقبل أي تغير مادي ملموس على اعتبار ان في تاريخ كل مرحلة توجد بدايات جنينية في المرحلة التي تسبقها أو قبل ذلك بكثير .

وأساسا يكون الأصرار على تبعية الفكر ومحدوديته بدورات الإنتاج وتبدلات العلاقات الإنتاجية بالشكل الميكانيكي المطروح أحيانا من قبل ( ميتافيزيائي المادية ) إنما هو اعلان لوعي خاطيء وفاشل . نعم أن الفكر بأساسه المادي وبأصلية راسخة غير ان تفسير ذلك لا يتم بالربط المتزمت والدوغماتي بين ( المرحلة ) و ( فكر المرحلة ) . وما دام التأكيد قد جرى من قبل النقاد العلميين الماديين على فعالية الفكر كمؤثر سابق فان من الموضوعية أيضا الانتباه الى

## منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

## مكتبة النوري

شارع سنجدار

حقيقتين واقعتين ، الأولى ان الفكر يتعمق بالثورة الاشتراكية ويتواصل وتمتد جذوره في تربة أوسع ، أي ان الفكر لا يصبح قصرا على مجموعة أفراد أو هيئات معينة بل يصبح الفكر أكثر انتشارا وتغلغلا بين الجماهير ، أن الدول الاشتراكية قد قدمت عدة أدلة على تعاضد الفكر بعد ثورتها الاشتراكية والديمقراطية الشعبية ، وازدياد التطور العلمي وتحول الثقافة الى ثقافة جماهيرية متلاحقة هما من حصاد الثورة الاشتراكية . والحقيقة الثانية ، وهي من معطيات التجربة في العالم الثالث تشير الى أن من الممكن حدوث تغيرات ثورية في الأساس المادي للمجتمع ويظل الفكر ( الفكري ، الرجعي ، الاتكالي . . ) متخلفا وعائقا أمام التطور المادي ، بل وأكثر من ذلك قادرا على القضاء على التحولات الثورية ( في المجال الاقتصادي ) وأجهاضها في التو أو بمرور الوقت .

وإذا كان التوصل الى مثل هذه الحقائق المعروضة هينا - لأن مثل هذه الحقائق مستقرة من الواقع أو من تحليلات الأيديولوجيين الثوريين للواقع - فإنه مما يشير نقاشا عريضا ومحتدما يعني الفكر والتجربة الثورية .

السؤال : لماذا توجد حركات فكرية أو تيارات فلسفية أو عطاءات عقلية عالية في بعض العهود الرجعية أو الفنية أو الاسترقافية أكثر أهمية ونفاذا وشمولية من بعض فضايا الفكر بعد انتصار الاشتراكية أحيانا ؟

أي ما هو الشخص العلمي أو الرؤية الصادقة التي ارتكز عليها ( ماركس ) عندما تحدث عن ( اليونانيين ) ( أطفال البشرية ) فيما قدموه من فكر باهر ؟ وهل كان لذلك الفكر بناء تحتي وأساس من العلاقات الإنتاجية المفترضة ؟

### الموضوعة الثالثة : النظرية الثورية والفكر عند الثوري :

لما كان الثوري الحقيقي يراهن - دون أن يفهم - من أجل إثبات معطياته العقلية فهو يسمى في تغيير الواقع مزودا بسلاحه النظري الذي يكتشف ويستنتج ويقرر التغيير . ومن هنا فإن النظرية الثورية بالنسبة للثوري هي أداة الوحدة في فرز الاختلاطات والتداخل في شبكة العلاقات الكلية وهي التي تحدد له خط العمل وخط السير . والنظرية الثورية ليست صيغة كاملة نهائية ، لأنها إذا كانت قائما يفودنا ذلك النظر الى مثالية جديدة تصم أذن وتعالى على الواقع . بل ان النظرية الثورية ثمرة احتكاك وتفاعل المبادئ الذهنية المجردة مع التجربة . ومن هذه النقطة تأخذ النظرية الثورية حيويتها ونشاطها العامل .

ولكن يشاء البعض أن يقول النظرية الثورية بتحديددها في مجموعة مقولات واشتراطات وافترضات قسرية تضمنت في إطار الوعي الستائكي . وذلك يتم عبر فناعة غيبة تدعي الامتياز وتتحاشي مواجهة الواقع المتجدد . ولعل أخطر ما يسبب انحراف النظرية الثورية وابتعادها عن علة وجودها أمران . الأمر الأول محاولة تخطيط وتسييج النظرية وكأنها علم قائم بذاته ويفني عن ضرورات التوسع الفكري . فيكون حامل النظرية ملما بتفاصيل كثيرة عن أساسيات النظرية الهيكلية والتجريدية ومتخليا في نفس الوقت عن مهمة معرفة الكثير من الأفكار والتيارات والاتجاهات والمنجزات الفكرية المتعددة . وبذلك فإن النظرية تكون معزولة عن وسطها الطبيعي الذي أوجدها ويقرر مصيرها وهو الفكر ككل . ان النظرية تعيش وتزدهر متى كان صاحبها مسؤولا أمام الفكر العالمي والتاريخي كمتعلم ودارس ومنقب . فلا شيء في الفلسفة أو في التاريخ أو في بقية صنوف المعرفة والعلم لا يستوجب الاطلاع ، بل العكس هو الصحيح لأن الثوري المكلف بمهمة تغير العالم مطالبا بان

يعي أي عالم هذا الذي يحياه وأي فكر هذا الذي يولد في العالم . أن النظرية هي حيوية وديناميكية فقط في كينونتها عبر حركة الفكر وجديته وبدون ذلك سرعان ما تتبدد . أما الأمر الثاني فهو التصور بأن الوعي الثوري للنظرية المرشدة في العمل يتحقق بعد معرفة بعض البنود والخطوط العامة في الماركسية . كان يعتقد الشخص بان معرفته بالتحديدات العامة والمختزلة للمادية الديالكتيكية أو المادية التاريخية هو جوهر الأرب . وإذا به يحول الماركسية الخلاقة الى مجموعة مبادئ مسطرة بتكرار آلي ومهياة للترديد الفولي والثثرة الفارغة . أن الواقع هو أن من المستحيل أن يكون المرء ماركسيا إذا لم يعرف عااه ، مجتمعا واقتصادا وسياسة وفنسا وعلاقات . وبهذه المعرفة تكون المادية الديالكتيكية والتاريخية طريقة تفسير وأساس لمنطلق الرؤية الحقيقية التي تقود الى الكشف الموضوعي .

فليس المهم أن يتحدث أحد عن المادية الديالكتيكية بالصورة الجاهزة واللاهوتية عن تحول ( الكم ) الى ( كيف ) أو عن (الإنفاض) . الخ ، بل المهم أن يعيش ويعي هذا التحول وهذا التناقض ويختبره وبذلك فقط تتأكد صحة المقولة . ولهذا فالماركسي لا بد أن يتخصص في ناحية من نواحي الأيستمولوجيا . وكون الماركسي علما اجتماعيا أو اقتصاديا أو فنا أو شاعرا أو خبيرا في ابداع عملي معروف هو وحده الذي يعطي الصورة الشرعية والصادقة عن ماركسية الماركسي . أما حفظ الاقاليم والمصطلحات والتعداد الرقمي المنسوخ فهذا محاولة شائنة لحجر الماركسية في توابيت الأعداء .

أن هذين الأمرين المذكورين أعلاه لا يعيقان النظرية الثورية عن دورها العلمي الواقعي الطبيعي فحسب بل قد يعرضان حتى الحركة العفوية للتطور الى التلكؤ والاضطراب .

- للبحث صلة -

عزیز السيد جاسم

بغداد

## دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

من أدبنا المعاصر

للدكتور طه حسين

قضايا جديدة في أدبنا الحديث

للدكتور محمد مندور

مشكلة الحب

للدكتور زكريا ابراهيم

تجديد رسالة الففران

لخليل هندواي

دراسات في الادب الجزائري

لابو القاسم سعد الله

بابا همغواي

لهوتشنر

الادب المسؤول

رئيف خوري